الفصل الثامن

الثقافة والتعليم من النصف الثانى للقرن ١٩

حتى سنة ١٨٨٢

شهدت مصر منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى بداية الاحتلال البريطانى عددا من المتغيرات والقوى الجديدة ، ما شكل التعليم ووجهه وجهات تختلف الى حد كبير عما كان عليه فى النصف الأول منه ، ومن هنا كان من الضرورى الوقوف على هذه المتغيرات والقوى الجديدة حتى يكون لنا من الوضوح الفكرى ما نتمكن معه من ادراك وفهم ما كان يجرى على مسرح التعليم من وقائع وأحداث ٠

١ ـ المتغيرات الجديدة :

(أ) **انفتاح شهية الرأسمالية العالمية لمصر :** كان الكثير يتوقف على شخصية الباشا الحاكم فى مصر « لأن الحكم كان شخصيا وليس شعبيا »(١) ولقد رزئت مصر فى تلك الفترة بحكام استطاعوا عن طريق ما تميزوا به من سفه وطيش وتبذير واسراف أن يفتحوا شهية الرأسمالية العالمية لمصر ، فتتمكن من مصر وتمتص من دمائها ما يدفع بها الى الثمالة حتى يتم التتويج بدخول الجيش البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ٠

(ب) **بدء ظهور الرأسمالية المصرية :** واذا كنا نلمس بوادر ظهور تعليم قومى فى البلاد فى عهد اسماعيل ، فلم يكن الا انعكاسا لما بدأت الأرض المصرية تشهده من حيث ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين وتبوء عدد لا يستهان به من المصريين لبعض المناصب الادارية الكبرى(٢) ٠

ولعل نظام الاحتكار وهروب الفلاحين من زراعة الأرض فى عهد محمد على وعزوف المشايخ عن خدمة الحكومة لثقل الأعباء التى كانت تلقى عليهم قد حال دون وجود بذرة صالحة لنمو طبقة ميسورة من هؤلاء المشايخ يمكن أن

---

(١) دافيد لاندز : بنوك وباشوات : ترجمة عبد العظيم أنيس ص ٨٧ ـ ٨٨ ٠

(٢) حسين فوزى النجار : أحمد لطفى السيد ، ص ٢٧ ٠

تكون نواة لطبقة من الاعيـــان المصريين تستطيع ان تطاول طبقة الذوات التركية ، حتى اذا كان حكم سعيد واصدار اللائحة السعيدية فى ٥ اغسطس سنة ١٨٥٨ التى أباحت الملكية الخاصة للأطيان وحرية التصرف فيها بالبيـع والرهن ، وأعفت الفلاحين من المتأخرات التى كانت عليهم وقدرت حينذاك بثمانمائة ألف من الجنيهات أخذ المصريون يقبلون على حيازة الارض واقتنائها. وبدأت تتكون طبقة من ملاك الأرض المصريين ساعدت على نموها عدة عوامل أخرى ، وأصبح بعضها من كبار الملاك ، وسرعان ما اخذت تنافس طبقـــة الذوات التركية ثراءها وان قصرت عن أن تنافسها الجاه والسلطان .

(ج) **ضعف الثقة فى العقلية المصرية** : وعـــلى عكس ما اظهرته بعض الجهود التى قام بها محمد على فى النصف الأول من القرن ١٩ من ثقة بقدرة العقلية المصرية على التعلم ، فان السنوات التى تلت مدة حكمه حيث تولى ابنه عباس الحكم قد شهدت من المظاهر ما يدل على عكس هذا . فالمتصفح للعديد من الوقائع والأحداث يلمس كيف كان هذا الوالى « يستكثر عـــلى المصريين أن يتعلموا ، فهم من الفلاحين الذين لا يليق لهم العمل الا فى الحقول وخدمة السادة الأتراك ، فلقد كان يمثل الأرستقراطية التركية فى أضيق حدودها واشكالها : فطرابيش مستخدمى الحكومة وازياؤهم يجب أن تكون على مثال ما يلبسه الموظفون فى (دار السعادة)(١) وعليهم أن يرسلوا لحاهم كما يفعل الموظفون فى دار السعادة أيضا .

ويرسل عباس مؤنبا طلاب البعثة المصرية فى الخارج ـ او الفلاحين ـ بأنهم ما زالوا متخلفين « بطباع الخونة التى هى طباعهم الأصيلة » . ويتهددهم باعادتهم الى القرية وتلبيسهم ملابس الفلاحين وسلكهم فى فلاحة الأرض .

وغضب عباس غضبا شديدا عندما علم بارسال جريدة الوقائع الى عدد كبير من الموظفين والعلماء والتلاميذ وأعيان المصريين فقرر أن يحظر ذلك على غير أصحاب رتبة أميرالاى وما فوقها ، ذلك أنه استشاط غضبا حين علم أنها ترسل « لجماعة أمية وسفلة مثل حسن أغا وكيل الخرج وفيض الله أغا الطاهى وموسى اليهودى الآلاتى . فلما رأيت ذلك خجلت من نفسى » !! .

ولم يكن الخديوى سعيد مختلفا فى ذلك عن سلفه ، فالصبغة العسكرية واضحة فى أكثر مؤسساته التعليمية ، ولهذا نرى أن معظم تلامذتها كانوا من

---

(١) عاصمة الدولة العثمانية .

الترك والمماليك من أبناء كريد والمورة والأناضول ، أما العنصر المصرى فكان قليلا أو منعدما · فمدارس سعيد لم تنشأ لتربية أبناء الشعب ، وانما أنشئت لتربية عدد من مماليك الوالى وكبار ضباطه وموظفيه واعدادهم لوظائف الحكومة وخاصة السلك العسكرى ، وهذا فى أغلب الأحوال راجع الى قلة ثقة سعيد فى تعليم المصريين · ومن الأمثلة على ذلك أن المدرسة الحربية بالاسكندرية كان بها - كما يثبت جدول الامتحان - ٢١٢ تلميذا · من بينهم سبعة طلاب فقط كتب أمامهم « مصر لى » وليس معنى هذا أنهم مصريون حقيقة ، وانما من « المولودين » بها ، أما الآخرون فمن الشركس وأبناء المورة والأناضول وأزمير ومرعش وكريد والآستانة ·· الخ ·

(د) أزهار الثقافة الجديدة تبدأ فى التفتح :

فى عهد محمد على سافر رفاعة الطهطاوى وسافر على مبارك وسافر غيرهما الى أوربا ، وهناك تفتحت عيونهم وعقولهم على مشاهد لم يألفوا لها مثيلا فى بلادهم · رأوا فى البلاد الأوربية دساتير تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ونشاطا فى كل ألوان الحياة · وتقدما علميا وماديا غريبا عليهم ، والتفت معظم المبعوثين الى تيار العلم المتدفق وكلهم حماسة لنهضة بلدهم(١)·

وعندما عاد هؤلاء - كانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الأوربية فى العصر الحديث · حيث حملوا معهم بذور النهضة الحديثة وألقوها فى التربة المصرية · ثم ينتشر التعليم على نطاق شعبى فى القرى ، ويتكون « اتحاد الشبيبة المصرية » الذى يدعو الأفراد الى فتح المدارس والتوسع فى التعليم الحر تخفيفا للعبء الملقى على الميزانية وسعيا وراء نشر الثقافة بين أبناء البلاد على نطاق واسع ، وتكثر المدارس الأجنبية كثرة كبيرة وتزدهر النهضة فى الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، وذلك عن طريق انتشار الصحف ·

وقام عدد من الجمعيات العلمية مثل جمعية : المعارف لنشر الثقافة عن طريق التأليف والنشر سنة ١٨٦٨ والجمعية الجغرافية التى عنيت بالدراسات الجغرافية والمطابع ودور الكتب ·

ولابد أن نذكر كذلك أن دار الأوبرا قد بنيت فى ذلك العهد ، وأن

---

(١) ماهر حسن فهمى : قاسم أمين ، ص ١٣ ·

نهضة مسرحية تكاد تبلغ الذروة كانت فى تلك الايام ، فتتعدد المسارح وتؤلف الروايات وتعرب التمثيليات ٠

وتوج هذا وذاك بتلك الكلمات الصارخة الثائرة تستنهض همم الشرقيين على وجه العموم والمصريين على وجه الخصوص قالها جمال الدين الأفغانى ٠

من الاضمحلال الكمى والتدهور النوعى فى التعليم الى الازدهار الكمى :

ألغى معظم المدارس فى عهد عباس(١) بعد الذى عطل منها فى أواخر عهد محمد على ، وأقفلت أبوابها ، عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها الا عدد قليل ٠ واختار من تلاميذ المدارس التى ألغاها عددا أدخلهم مدرسة أنشأها سنة ١٨٤٩ سماها « المفروزة » وكانت المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حربية ٠ ومن الحجج التى سيقت فى تبرير هذا العمل الشائن ، الاقتصاد فى النفقات ، ومع ذلك ، فقد أرسل هذا الحاكم حملة مؤلفة من نحو ٢٠٫٠٠٠ مقاتل لمساعدة الأتراك فى محاربة الروس ٠٠٠ !!

واستمر الاضمحلال والتدهور فى عهد سعيد ٠

وأبرزت ـ كالعادة ـ حجة قلة الاعتماد وضيق ذات اليد ، وفى نفس الوقت ، فتحت الاعتمادات على مصراعيها ولم تضق ذات اليد لايفاد حملة مصرية الى المكسيك لمساعدة نابليون الثالث ، وهكذا تصل الشهامة (السفه فى حقيقة الأمر) الى الحد الذى يضيق فيه على أبناء البلاد لمساعدة الدول الأخرى ، هذا بالاضافة الى استمرار مساعدة الأتراك فى محاربة الروس ٠

بيد أن هذا الاضمحلال وذلك التدهور انتهيا بانتهاء حكم سعيد ، وبدأ التعليم يشهد حيوية وحركة وازدهارا ، وان كان مثل هذا الازدهار وهذه الحيوية قد اقتصرا على الجانب الكمى فقط دون الكيفى ، وللتدليل على ذلك نذكر الحقائق الآتية :

أ ـ **من المدارس الحربية :** أنشئت مدارس البيادة (المشاة) سنة ١٨٧٤ ـ السوارى (الفرسان) سنة ١٨٦٥ ـ الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية سنة ١٨٦٥ ـ مدرسة أركان الحرب ، سنة ١٨٦٥ ـ

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ٠

مدرسة الخطرية (الأطفال العسكرية) سنة ١٨٧٤ ـ مدرسة صف الضباط سنة ١٨٧٤ ـ مدرسة قلفاوات الشيش ـ مدرسة الجبخانجية ٠

وقد أقفلت هذه المدارس فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) نظرا للافلاس المالى وأنشئت بدلها المدرسة الحربية المستجدة فى ابريل سنة ١٨٧٩ ٠

ب ـ **المدارس العالية** : أنشئت مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٦٦ ـ مدرسة الحقوق سنة ١٨٦٨ (أو الادارة والألسن) ـ دار العلوم سنة ١٨٧٢ ٠

جـ ـ واذا لم تكن فى البلاد من مدارس نسوية الا مدارس الولادة التى لم يكن يتعلم بها فى الغالب سوى البنات الحبشيات ، الا أنه فى سنة ١٨٧٣ ، بدأ اتخاذ خطوات جذرية لتعليم البنات فى مصر سوف نتحدث عنها تفصيليا فيما بعد ٠

د ـ **المدارس الصناعية** : مدرسة الفنون والصنائع سنة ١٨٦٨ ، وكانت تعرف بمدرسة العمليات ـ مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨ ، وألغيت سنة ١٨٦٩ ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع ـ فرقة النقاشين ، سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧١ ٠

هـ ـ **المدارس الخصوصية** : أنشئت مدرسة المساحة والمحاسبة سنة ١٨٦٨ ـ مدارس اللسان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) سنة ١٨٧٩ فرقة الرسم بالمدارس الملكية سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٨٩ ـ مدرسة الزراعة ، سنة ١٨٦٧ ، وألغيت سنة ١٨٧٥ ـ مدرسة العميان والخرس للبنين والبنات ، سنة ١٨٧٥ ٠

و ـ **المدارس الثانوية** : المدرسة التجهيزية سنة ١٨٦٣ (وعرفت بالخديوية) ـ مدرسة رأس التين بالاسكندرية سنة ١٨٦٣ ٠

ز ـ **المدارس الابتدائية** : وقد أفردنا لها حديثا مستقلا ٠

ح ـ أعاد اسماعيل عهد البعثات التى ازدان بها عصر محمد على من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة الى مدارس أوروبا منذ سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم ـ فيما يقول الرافعى ـ مدة حكمه ١٧٢ طالبا ٠

سياسة التعليم بين ضيق الأفق والاضطراب والتخبط (١٨٤٩ - ١٨٦٣) :

عندما يتضح للمسئولين فى قطاع ما أن القائمين به لا يسيرون سيرا حسنا ، بل يفتقدون المقومات الأساسية اللازمة لمن يكلف بالعمل ، فمن المنطقى ألا يكون هذا داعيا لالغاء « العمل » نفسه وانما المطلوب هنا هو تغيير « الكادر » القائم بمن هو أصلح وأقوم سبيلا ، هذا هو المنطقى ، ولكن عباسا الأول عود من يقرأون تاريخه أنه لا يسير وفق قواعد المنطق السليم ، فيكفى أن يلمس تقصيرا فى مجال ما حتى يبادر بالغائه ، أو على الأقل بالتهديد بذلك مما يدل دلالة قاطعة على ما كان عليه هذا الرجل من ضيق أفق وخاصة فى المجال التعليمى(١) .

كتب فى سنة ١٢٦٦ هـ الى مدير ديوان المدارس يقول « لما وصلت الى المنيا هذه المدة دعوت المهندسين المتخرجين فى ديوان المدارس الذى هو مؤسس لتثقيف الشعب وتنشئة رجال نافعين للوطن ، وعند اختبارى اياهم وجدتهم مجردين بالكلية من العلم والعمل .. وفضلا عن هذا وجدنا بعضهم غير ملمين بعملية ضرب الأرقام ... » .

وأمر عباس بطرد أولئك المهندسين وعدتهم خمسة عشر مهندسا وتوعد بالعقاب من يعود الى استخدامهم كما أمر بتعيين خمسة من أكفأ المهندسين ليقوموا بعمل المهندسين المفصولين متوعدا بامتحانهم عند عودته من سياحته بالوجه القبلى « فاذا تبين أنهم جاهلون أيضا ولا يصلحون الا لجلب الحسائر فحتما سأطردهم من الخدمة أيضا وسأضطر الى الغاء ديوان المدارس » .

ويتحين عباس الفرص للقضاء على بعض المدارس فيضيق عليها الخناق ويلقى أمامها بالصعوبات ، ويتعلل بالعلل التافهة والمضحكة فى كثير من الأحيان لالغائها فقد أصدر أمره بنقل مدرسة الطب البيطرى من اسطبل شبرا الى الوجه البحرى .

ولم يمض على الأمر العالى بنقلها الى الوجه البحرى شهران حتى صدر أمر عباس الأول الى الكتخدا بالغاء المدرسة وطرد جميع الأطباء البيطريين من خدمة الحكومة واسترداد نياشينهم ، مبررا ذلك بأن « الأطباء البياطرة الذين نشئوا منذ صغرهم وأعدوا للعمل بعد نفقات عظيمة واحتمال كثير من التعب

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، عصر عباس وسعيد ، ص ٢٠ .

والمشقة كانوا هم السبب الوحيد فى هلاك عـــدد كبير من الدواب والمواشى بالجفالك وغيرها من الجهات الأميرية ، فضلا عن أنهم أتلفوا الجـــواد الأحمر السقلاوى الذى أرسله حضرة الشريف الى حضرة مولانا الأكبر ... » .

أما سياسة سعيد فقد اتسمت بالتخبط والاضطراب ، فاذا كان يقبل على العلم فى صدر شبابه ويختلط بالناس - ومنهم الأجانب - ويعرف عنهم ومنهم الكثير ، ويشترك مع أبيـــه فى بعض المشروعات الاصلاحية ، الا أنه يقدم من الأدلة والبراهين ما يدل على تقلبه وتخبطه ، وعلى أن عهـــده كان نكسة أخرى للتعليم فى مصر ، وهكذا فالجيش يرعاه فيكثر عـــدده وينتظم أمره ويبث فيه دعوة يحبب الوطنيين اليه ، واذا به يضيق بهذا الجيش فيأمر بحله ويقصر همه على فرقة من الجند يدعوهم باسمه ويغدق عليهم من حسن الثياب وطيب المأكل ولطف المنظر . والسودان ، يهفو اليـه فؤاده فيزوره متفقدا أرجاءه ، حتى اذا غضب لبعض شأنه ، اعتزم اخلاء هذه البلاد .

ويذكر الياس أيوبى أن سعيد قال لكونج بك مربيه السويسرى الذى أصبح صديقه الخاص بعـــد ما تولى العرش ، وكان يحضـــه على اعادة فتح المدارس التى أقفلها عباس سلفه « لماذا نعلم الشعب ؟ لـكى يصبح الحـكم عليه والتصرف فيه أعسر مما هو عليه ؟ دعهم فى جهلهم ! فالأمة الجـــاهلة أسلس قيادا فى يدى حاكمها »(١) .

وهو يشجع كلا من (أدهم باشا) والطهطاوى على وضع لائحة تهدف الى النهوض بالتعليم الشعبى ثم يأمر بوقف تنفيذها .

بدء الاهتمام باعداد المعلم :

فى سنة ١٨٧١ كان بسراى درب الجماميز (مكان المدرسة الحـــديوية الآن) جملة مدارس عليا ، عدا ديوان النظارة والمكتبة الخديوية (دار الكتب) وعدا مدرجا أنشىء خصيصا للاحتفال بالامتحانات التى كانت تجرى سنويا أمام الخديوى أو نائبه ترغيبا فى الاقبال على العلم وتنشيطا للتلاميذ .

ورأى على مبارك - وكان صاحب الفكرة فى انشاء هـــذا المدرج - أن ينتفع به طوال العام بدلا من قصر الانتفاع به على موسم الامتحانات فقط ،

---

(١) الياس أيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٢ ، م ١ ، ص ١٨٣ .

ففكر فى أن تلقى به محاضرات عامة لكبار الأساتذة · وفعلا أخرج فكرته الى حيز التنفيذ فى يولية سنة ١٨٧١ ، واختار اسم دار العلوم ، علما على هذا المكان مجاريا فى هذه التسمية مسميات المعاهد العلمية القديمة فى الشرق « كبيت الحكمة » وكان يستمع لهذه المحاضرات فى بادىء الامر طائفة من موظفى الحكومة والمدرسين وبعض طلبة المدارس العالية ، وفريق من طلبة الأزهر(١) ·

ولم يمض على انشاء مدرج دار العلوم شهران حتى طلب على مبارك من الشيخ العباسى شيخ الأزهر تعيين بعض العلماء الاعلام للتدريس بدار العلوم على حساب ديوان الأوقاف ، وانتخاب عشرة من نجباء الطلبة بالأزهر يحضرون بعض دروس « دار العلوم » العربية والشرعية ويربط لكل منهم خمسة وعشرون قرشا اعانة لهم من ديوان الأوقاف ولهم الحق فى حضور الدروس الأخرى كالفلك والطبيعة وينتخب منهم المدرسون عند الحاجة · وقد تبودلت المكاتبات بين مدير عموم المدارس وشيخ الأزهر · وتمت الموافقة على المطلوب(٢) ·

ثم التمس على مبارك من الخديو اسماعيل فتح مدرسة بالمكان السابق الذكر يكون عدد طلبتها خمسين طالبا لاعداد مدرسين بالمدارس لتعليم اللغة العربية واللغة التركية · فأجيب الى طلبه ·

وقد صدر الامر العالى بتحقيق هذا المطلب فى ١٨٧٢/٩/١(٣) ·

وآذن عام ١٨٨٠ بحدوث تغيير هام ، فدار العلوم رغم أنها أنشئت لاعداد المعلمين ، الا أن هذا الاعداد وقف عند حد الاعداد العلمى فقط ، وظلت كذلك الى أن بدأت الجهود تظهر فى أواخر السبعينات من القرن الماضى للنهوض بجميع جوانب التعليم ، وهذه الآمال ، هى ما يصوره تقرير قومسيون المعارف الذى كلف بدراسة أحوال التعليم فى مصر واقتراح مايراه أعضاؤه لتحسين أحواله ، وكان من الطبيعى أن تحتل قضية اعداد المعلم مكانا هاما فى هذه الجهود ، وبقراءة التقرير ، يمكن أن نلمس بوضوح مدى وعى القومسيون بأهمية « الطريقة » الجيدة فى التعليم وتعلمها والتدرب عليها ، فقد جاء فيه :

---

(١) جمعية المعلمين : الكتاب الذهبى لمدرسة المعلمين العليا (١٨٨٥ - ١٩٣٥) ص ١٩ ·
(٢) محمد عبد الجواد : تقويم دار العلوم ، دار المعارف ، ١٩٥١ ، ص ٨ ·
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣ ·

« وعيوب التعليم الابتدائى فى الجهات الكائن بها الآن ليست ناشئة عن كثرة عدد التلاميذ على المعلم الواحد ، وانما هى ناشئة عن كون التعليم قاصرا جدا ، يعنى انه مقتصر فيه على حفظ القرآن وعلى القراءة والكتابة ، وعلى كون طريقة التعليم ليست خصوصا مستوفية ... » .

وجاء فى نفس التقرير :

« ... وحيث أنه قد زاد احتياج الاهالى الآن الى انتشار المعـــارف بينهم ، والمانع من ذلك أمران : أحدهما : عدم كفاية النقود الضرورية لايجاد بعض مدارس جديدة ، والثانى : عدم وجود أشخاص جديرين بالتعليم فى درجاته المتنوعة .

« فالأمر الأول يمكن استدراكه بحسن التفات المجلس ، والأمر الثانى يمكن استدراكه بتحسين مدرسة دار العلوم الموجودة الآن ، وايجاد مدرسة أخرى للمدرسين تفتح فى عهد قريب لتعليم اللغات الأجنبية والرياضـــيات والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية التى هى من أعظم احتياجات الأهالى لتسهيل انتشار المعارف بينهم » .

ثم أصدر مجلس النظار قرارا فى ١٣ يوليه من عام ١٨٨٠ بتأسيس مدرسة المعلمين العمومية (النورمال Ecole Normal Central) ، وكانوا يسمونها « مدرسة الخوجات » .

وقد نص قرار تأسيس المدرسة على أنها تتكون من انضمام مدرسة دار العلوم ومدرسة المعلمين الجديدة وأنها قد تتكون من قسمين ، قسم لاعـــداد معلمين للمدارس الابتدائية بدرجاتها الثلاث ، والقسم الثانى لاعداد معلمين للمدارس الثانوية .

ومدة الدراسة فى مدرسة المعلمين للحصـــول على شـهادة التدريس بالمدارس الابتدائية من الدرجتين الثالثة والثانية ، سنتان تخصص السنة الاولى لاعادة وتعميق مواد التعليم الابتدائى وفى السنة الثانية يضاف الى هذه الدروس المبادىء الأساسية فى التربية ودروس عملية كثيرة .

أما مدة الدراسة للحصـــول على شهادة التعليم الابتـــدائى الراقى (الدرجة الأولى) فسنتان ، تخصص السنة الأولى منهما لاعادة مواد التعليم الثانوى مع تبسيطها وجعلها ملائمة للحياة العملية خاصة ، وفى الســـنة الثانية يتلقى الطلبة دروسا فى مبادىء التربية ويمرنون كثيرا على التدريس .

وسمح للتلاميذ الذين ينالون شهادة التعليم الابتدائى الراقى من درجة جيد جدا أو جيد ، أن يقضوا سنة تكميلية ، يتلقون فيهـــا دروسا تعدهم للتدريس بالمدارس الثانوية ، وتخصص هذه السنة لاكمال دراسة التعليم الثانوى ، واعادة دروس التربية التى تلقوها فى شهادة التعليم الابتـدائى الراقى ودروس عملية كثيرة ٠

ونص القرار على أن يقبل بالمدرسة طلبة خارجيون وطلبـــة داخليون يكونون من الفقراء أو ممن لا تقيم أسراتهم بالقاهرة ٠

وقد سمح للمعلمين العاملين فى المدارس الابتدائية من الدرجات الثلاث أن يلتحقوا بمدرسة المعلمين المركزية باختيـــارهم أو بقرار وزارى مدة من الزمن لا تزيد على العام ، وفى هذه الحالة يتابعون دروس السنة الثـانية أو الرابعة ٠

كذلك نص قرار تأسيس المدرسة على أن تلحق بهـــا مدرسة ابتدائية تجريبية تخصص لدروس التربية العملية ، ويلحق بهذه المدرسة ــ طبقا لمـا تراه النظارة ــ تلاميذ داخليون أو خارجيون ، ويكون بها معلم لكل فرقة ، وأجاز كذلك أن تنشأ بها فيما بعد فرق للتعليم الثانوى(١) ٠

مشروعات لانهاض التعليم الشعبى دون جدوى :

كانت السنوات الأخيرة من حكم محمد على قد شهدت تدهورا مستمرا لقاعدة التعليم الشعبية (تعليم المرحلة الأولى) ، فاذا كانت لائحـة التعليم سنة ١٨٣٧ قد قضت بأن يكون عدد المدارس الابتدائية خمسين مدرســـة بالقاهرة والاسكندرية والمدن الرئيسية بالأقاليم ، الا أن عـــــددها تناقص فأصبح ثمان وثلاثين فى سنة ١٨٤٠ ، ثم ألغيت كلها فى سنة ١٨٤١ ، ثم أعيد فتح أربع منها فى نفس العام لتعد ــ مع مدرستى المبتديان بالقـــاهرة والاسكندرية ــ تلاميذ للمدرسة التجهيزية ٠

ثم جاء عباس الأول بسفهه وجهله ليقضى على البقية الباقية وخاصة تلك المدارس الابتدائية القائمة بالأقاليم والاكتفاء بمدرسة المبتديان بالقاهرة ٠

---

(١) الكتاب الذهبى لمدرسة المعلمين العليا ، ص ٢٣ ٠

وحتى مدرسة المبتديان بالقـــاهرة لم تسلم من استبداد هـــذا الوالى وجهله ، اذ أخذ يضيق عليها الخناق حتى ألغاها كلية ٠

وقد جعل التنظيم الجديد للتعليم فى مدرسة المهندسخانة ـ عدا قسم الهندسة ـ قسما ابتدائيا وآخر تجهيزيا ٠ وهـكذا تخلت الدولة عن تعليم الشعب ٠ وظلت المكاتب الأهلية هى المنفذ الوحيد له ٠

والمستقرىء للائحـــة التى وضعها أدهم باشا مـــع رفاعة الطهطاوى وتضمنت مشروع انشاء المكاتب الأهلية ، يلمس الدرجة التى كان عليها وعى الفكر التربوى المصرى بقيمة التربية الشعبية وأهميتها فى الوقت الـــذى يلمس فيه أيضا كيف أن الدولة فى ذلك الوقت ـ وعلى الرغم من ذلك ـ قد أصمت أذنها ولم تنفذ من هذه الأفكار شيئا(١) ٠

ومنذ عام ١٨٦٦ حدث تحـــول فكرى هام ، ففى ٢٢ أكتوبر من ذلك العام صدر النظام الأساسى لمجلس شورى النواب واشترطت المادة ٦١ من هذا النظام معرفة القراءة والكتابة فى النائب بعد ثمانى عشرة سنة ٠ ونبه أحد النواب وهو « أتربى بك أبو العز » زملاءه بضرورة الاســـتعداد لذلك « بكثرة ايجاد المكاتب فى سائر بلاد الأقاليم » والمعنى الهـام هنـــا هو أن التعليم ـ ليس فقط وسيلة لاعـــداد الموظفين اللازمين للدولة ـ بل هو فى الوقت نفسه أداة التربية السياسية ، وبعد أن تناقش النواب فى الموضوع ، وضعوا مشروعا يقوم على المبادىء والاسس الآتية(٢) :

ـ التعاون بين الجهود الحـــكومية والجهود الأهلية فى مجـــال التعليم الابتدائى ٠

ـ ضرورة تدبير موارد للصرف على هذا التعليم فى خارج نطاق ميزانية الدولة تخفيفا عن هذه الميزانية من جهة وتدعيما لصفتها الأهلية من جهـــة أخرى ٠

ـ وترتب على ذلك أن دعيت المدارس الابتدائية الجديدة ـ التى أنشئت فى ظل هـــذا النظام ـ بالمدارس أو المكاتب « الأهلية » توكيـــدا لصفتها

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، جـ ٣ ، ملحقات ص ٩ ٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ وما بعدها ٠

« الأهلية » كمعاهد للتعليم الابتدائى الخارج عن ميزانية الحكومة · ومنذ ذلك الوقت نجد أن حكومة اسماعيل قد وضعت سياستها المالية فى التعليم على أساس أن تقتصر الحكومة فى الصرف على المدارس التجهيزية والخصوصية وهى المعاهد التى تعد لها الموظفين · أما المدارس الابتدائية وهى معاهد التعليم الشعبى التى ترمى الى نشر التعليم بين الأهالى « فيكون الصرف عليها من الأهالى والأوقاف ·· اذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم » وذلك يتفق بطبيعة الحال واوضاع البلاد المالية فى ذلك الوقت وبداية الاستنزاف الرأسمالى العالمى - عن طريق الخديوى - للمالية المصرية · ولذلك نرى أن النقص المتوالى فى عدد تلاميذ المدارس الأميرية كان يقابله ازدياد فى عدد تلامذة المدارس الأهلية ·

- الاعتراف بالمكاتب أو الكتاتيب الاهلية والاكتفاء بها فى القاهرة والاسكندرية - حيث تكثر مدارس الحكومة - والاستغناء بها عن فتح مدارس جديدة · هذا الى ادراك ضرورة اصلاحها حتى تصبح تحت اشراف الحكومة وسيلة طيبة لنشر تعليم أولى صالح ·

وكان من الضرورى وضع الاجراءات التى تبين كيفية تطبيق هذه المبادىء وتلك السياسة ، وهذا هو ما قام به على مبارك فى اللائحة المشهورة باسم (لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ) - ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ · ومن أهم ما يسترعى الانتباه فى هذه اللائحة محاولة وضع مبدأ « هيمنة الدولة على التعليم » موضع التطبيق ، بالنسبة للمكاتب الأهلية ، فتقرر « دخولها من جهة الادارة فى فروع المدارس المصرية » · ويتبع هذا اخضاعها جميعا لأسلوب واحد فى التعليم « لتكون طرق التعليم واحدة مفيدة على صورة جميلة حميدة » واستخدامها أداة « لنشر المعلومات الأهلية لا سيما فى العلوم الأولية » · وحتى تتبين لنا ضخامة هذا العمل يكفى أن نعلم أنه ثبت أن القاهرة وحدها فى ذلك الوقت كان بها ٢٢٢ مكتبا أهليا ، تتباين فيما بينها تباينا عظيما فى كل شىء ، وكان اصلاح هذا العدد الكبير من المكاتب يعنى بعث الحياة فى هذا الهيكل الضخم المترامى الأطراف ·

والى جانب ذلك عنيت اللائحة بانشاء المدارس الابتدائية بعواصم المديريات وهى التى سميت باسم « المدارس المركزية » روعى فى تنظيمها ادخال نظام (الخارجية) وخاصة للتلاميذ الذين يقيمون بالقرب من مدارسهم ونظام (المصروفات المدرسية) للقادرين من الأهالى ، وأن تكون مواردها من ايرادات الأوقاف وتبرعات الأهالى · وقد أنشئت بعد شهر من صدور اللائحة مدرسة فى بنها وأخرى فى أسيوط (يناير - فبراير ١٨٦٨) ربيبا

تتيح الظروف انشاء مدارس فى عواصم المديريات الأخرى ، وأنشئت مدرسة فى بنى سويف ومدرسة فى المنيا (١٨٧٢ - ١٨٧٣) ومدرسة فى رشيد (١٨٧٦) وأخرى فى الفشن (١٨٧٩) وكلهـــا انشئت لتكون مكاتب (أهلية) ... الخ .

ولم يجر انشاء المدارس المركزية على النحو الذى رسمته اللائحة ، فظل النظام الداخلى المجانى قائما ، الا أنه منذ سنة ١٨٧٢ فرضت رسوم دراسية بسيطة على التلاميذ وبدأ بها النظام الخارجى فى نطاق محدود ، كذلك فان الاعتماد على التمويل الأهلى لم يتم كما كان مرجوا .

أما الكتاتيب فقد قررت اللائحة لهـــا بعض الاجراءات التى يمكن أن تصلح من شأنها مع الاحتفاظ بروحها وهيكلها .

وحاولت اللائحة أن توجد بابا مفتوحا بين النظـــام التعليمى الأهـلى والنظام الحكومى فأشارت بأن التلاميذ المنتهين من المكاتب الفردية البسيطة يستطيعون أن يلتحقوا بالمكاتب الأهلية الكبيرة أو المدارس المركزية لتعدهم للحاق - اذا شاءوا - بالمدارس الأميرية .

وكان التعليم الشعبى على وشك أن يشهد تغييرا من نوع آخر لا يقتصر على الشكل والتنظيم وانما يتناول مضمونه ومحتواه والحياة المدرسية فيه ، اذ وضع (رياض باشا) بالتعاون مع (دوربك) خبير التعليم السويسرى خطة تشمل التغيرات الآتية :

- ليست الحكومة ملزمة بأن تتحمل نفقـــات تعليم أبناء الفقراء من الناس ، أما أغنيـــائهم وأوساطهم فيدفعون رسوما تحدد طبقا لدرجـــة يسارهم .

- ضرورة تحديد سن التلاميذ ، فيتراوح سن التلميذ فى المـــدرسة الابتدائية بين الثامنة والثانية عشرة .

- تقسيم التـــلاميذ فى المدارس قسمين : تلاميذ بالقسـم الداخلى ، والآخرون بالخارجى ، ويقسم كل فريق ثلاث درجات ، فتلاميذ الدرجة الأولى هم أصحاب اليسار وتلاميذ الدرجة الثانية هم أوساط النـــاس ، وتلاميذ الدرجة الثالثة هم الفقراء .

- تلميذ الدرجة الثالثة وهو الذى يتعلم على نفقة الحكومة بعد (ابنا) لها ولذلك ليس لأهله حق فى طلب اخراجه من المدارس أو نقله الا بعذر صحيح .

ولم تمض ستة أشهر من عام ١٨٧٤ على البدء فى تنفيذ هذه الخطة حتى أبعد رياض عن ديوان المدارس وتعطل التنفيذ وجمدت حركة الاصلاح الوليدة .

ثم يشهد تاريخ التعليم فى هذه الفترة صحوة أكبر ويقظة أعظم تتمثل فى ذلك المشروع الضخم الذى وضعته لجنة لاصلاح التعليم (أو قومسيون تنظيم المعارف) سنة ١٨٨٠ فى عهد الخديوى توفيق برياسة على (باشا) ابراهيم وزير المعارف فى ذلك الوقت .

بيد أن ما هب على مصر بعد ذلك بشهور من عواصف التدخل الأجنبى واندلاع الثورة العرابية ثم الاحتلال الانجليزى . عطل تنفيذ معظم ما ورد فى هذا المشروع من اقتراحات ، وان نفذ بعضها .

ارهاصات الاصلاح فى التعليم الدينى :

وبينما كان الأزهر بمعاهده يغط فى نوم عميق لا يحفل بما يترى على الحياة الدنيا من تغير ، لاحت البداية الأولى لسلسلة طويلة من مشروعات لتجديد التعليم الدينى بعضها ظل حبرا على ورق والبعض الآخر نفذ جزء منه ولم ينفذ الآخر لمقاومة بعض رجال الأزهر له(١) .

وأول ما نجده فى هذا المجال ، لائحة رفعها الشيخ مصطفى محمد العروسى الى الخديوى اسماعيل فى ١٦ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ . ويستوقفنا منها المعالم الآتية(٢) :

- ضرورة التأكد من أن المعلم الذى يقوم بقراءة كتاب ما على تلاميذه يفهم هذا الكتاب فهما حسنا وأنه قادر على تعليم ما فيه للتلميذ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

- ينبغى على المعلم أن يتأكد من استعداد من جاء لطلب العلم على يديه لذلك ، والا فليرده عن هذا الأمر ٠

- طريقة التعليم التى تسهل تأثير المعلم على التلاميذ وتزيد من نمو ملكاتهم من الأمور المطلوبة ٠

- نظرا لهروب الكثير من الدخول فى الخدمة العسكرية وكذلك مما كان قائما من الأشكال العمومية عن طريق السخرة والاحتماء بمجاورى الأزهر الذين كانوا يعفون من هذه الاعمال ، أوجبت اللائحة تميز مجاورى الأزهر ببطاقات خاصة حتى يسهل القبض على غيرهم ٠

- وجوب تعيين مصححين مراقبين فى المطابع المختلفة لتصحيح ومراقبة ما يتم طبعه من كتب تتناول المسائل الدينية ٠

- اذا كان الأزهر قد كسب شهرة عالمية بأنه مشحون بالعلماء المحققين والفضلاء الراسخين فى كل علم من العلوم الشرعية والعقلية والرياضية « والحال الآن بخلاف ذلك فعلا ٠٠ » فقد وجب العمل على اعادة ما كان للأزهر من فضل فى مثل هذه المجالات العلمية ٠

- أشارت اللائحة الى ضرورة الأخذ بنظام الامتحان السنوى حتى يمكن متابعة أحوال الطلاب بدلا مما كان جاريا من عدم الامتحان ٠

٠٠٠ بالاضافة الى نصوص أخرى تتعلق بجوانب تهذيبية ، وتأديبية ٠

وعندما تولى الشيخ محمد العباسى المهدى مشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ، أنشأ نظاما للامتحان لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ ، فقد كان التدريس فى الأزهر خلوا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظاما لامتحان العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برئاسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء ٠ ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم واعطاء الناجحين منهم أجازة العالمية وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى الأزهر ٠

وجاء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفخ فى الأزهر روح النهضة وغرس بذور التقدم الفكرى والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الشيخ محمد عبده فى الأزهر وخارج الأزهر ٠

دعم تعليم البنات :

كان الرأى العام شديد التأثير فى هذا الموضوع الى درجة أن محمد على الذى لم يكن لينحنى بسهولة أمام ضجته ولا يهاب سخطه - أبى الموافقة على ما أشار به مجلس معارفه الأعلا المتشرب بالمبادىء الغربية والمقتنع بعظم تأثير المرأة المتعلمة فى المجتمع ، من وجوب تعليم البنـــات ، وانشاء مدارس لهن أسوة بمدارس الصبيان واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهن على يد المسز ليدر زوجة أحد مبشرى الانجليز ، التى أنشأت فى سنة ١٨٣٥ أول مدرسة أجنبية للبنات فى مصر ، بتشجيع من تلميذتها الخانم بنت محمد على الكبرى زوجة محرم بك أمير الأسطول المصرى ، ومحافظ ثغر الاسكندرية المسمى باسمه الحى الكبير المشهور فى هذه المدينة ٠

ولما كان الناس - لا سيما الارستقراطيون - على دين ملوكهم ، اقتدى بمحمد على الذوات والوجوه ، وبدأت تنتشر فى البـــلاد عادة اســـتخدام الأرستقراطيين معلمات أجنبيات لتهذيب بناتهم وتثقيف عقولهن ٠

غير أن محمد على لم يكن بالرجل الذى يهمل قيام أمر يعتقده هـــاما ومفيدا لمجرد مخالفته للرأى ، واذا لم يكن يرى صلاحية نفـــاذه واجرائه مباشرة ، كان ينفذه من وجه غير محسوس ، فلكى يهز جمـــود المجتمع عن تربية بناته هزا يوقظه من نومه أتاه - بمشورة كلوت بك - من طريق سوى وأنشأ مدرسة قابلات ٠

وفى عهد اسماعيل ، نجد أنه أوعز الى ثالثة زوجاته الأميرة تشمآ آفت خانم بأن تكون أول مدرسة اسلامية تفتح فى مصر لتعليم البنات على الطريقة الغربية من عملها ، فاشترت الأميرة سراى قديمة بالسيوفية وجددت بناءها ، فصيرتها مدرسة وفتحت أبوابها للطالبات فى ربيع سنة ١٨٧٢ وهى السنة التى غرقت فيها القاهرة فى احتفالات تزويج اسماعيل لأبنائه الثلاثة توفيق وحسين وحسن ٠

ولكن بالرغم من أن تلك المدرسة جعلت داخلية مجانية ، وأن البنات استدعيت اليها من جميع الطبقات بلا تمييز مذهبى أو اجتماعى ، وبالرغم من أن المعيشة فيها جعلت هنيئة فاخرة ، لم يقع فى خلد أحد من الأهالى فى بادىء الأمر أن يبعث بابنته اليها ، لشدة تسلط الأوهام الموروثة بلا تمحيص كنهها على العقول ٠

فلم تجد الأميرة عدد التلميذات اللازم لمدرستها ، واضطرت الى أن أخذت فتيات الجوارى البيض من بيتها وبيوت أميرات الأسرة المالكة وأمرائها وادخالهن فيها ٠

غير أن الغشاوة التى كانت على العيون ، ما لبثت أن انقشعت ، وبدأ الناس يشعرون بأهمية تعليم البنت ، فأقبلوا من كل ملة ونحلة ، وتزاحموا ببناتهم ، وسنهن من سبع الى اثنتى عشرة سنة ، على أبواب المدرسة السيوفية ليدخلوهن فيها ، فامتلأت بالداخليات المحلات المعدة لهن ، وعددها مائتان ٠ واضطرا لاقبال الادارة الى انشاء مائة محل أخرى ، ولكن خارجية ، لمن لم يكن قبولهن فى مصاف الداخليات(١) ٠

فأصدر اسماعيل أمره الى ادارة الأوقاف ، بانشاء مدرسة أخرى للبنات على نظام مدرسة السيوفية ، فتأسست فى جهـــة القربيـــة سنة ١٨٧٤ ٠ وكان التعليم فى كلتا المدرستين ـ ومدته خمس سنوات ـ مثله فى مدارس أوربا التى من نوعهما ، أى القراءة العربية ، والكتابة والحساب والرسم ، والجغرافيا والموسيقى وأشغال الابرة والطبخ والغسيل ، والتدبير المنزلى ، زيادة على تعلم التركية والفرنساوية وتلقين القرآن للمسلمات ٠ ولكـــن مصروفات التعليم كانت تفوق مثيلاتها فى أوربا لأن المظاهر هنا ، كانت فخمة كمظاهر كل ما كان يصدر عن اسماعيل ، وأما هنـــاك فكانت بسيطة عادية :

وعندما عزل اسماعيل من الحكم ، أراد ديوان الأوقاف أن يقتصر تعليم البنات فى مصر على مدرسة واحدة ، على أن تكون هذه المدرسة هى مدرسة السيوفية ، وتضم اليها مدرسة القربية(٢) ٠

ميلاد فكر تربوى مصرى :

الملاحظ على النشاط التعليمى الذى رأيناه فى مصر منذ مطلع العصور الحديثة انه لم يكن وليد نظرية تربوية أو فلسفة تعليمية تكون هاديا ومرشدا لما يتخذ من اجراءات وما يقوم من مؤسسات ، وكان ذلك مما يتفق وحـــالة

---

(١) الياس أيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، م ١ ، ص ٢٠٨ ٠
(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، ج ٢ ، م ١ ، ص ٣٧٣ ٠

الجمود التى كان عليها المجتمع المصرى بصفة عامة والثقافة المصرية بصفة خاصة . الا أننا فى هذه الفترة التى نتحدث عنها ، نلحظ مولودا جديدا وهو الفكر التربوى المصرى ، صحيح أننا لا نستطيع أن نزعم له التكامل والخط الواحد والفلسفة الناضجة . وصحيح أننا لا نستطيع أن نزعم أنه مصرى الأب والأم ، الا أننا - على الرغم من كل هذا - لابد أن نسجل هذه الظاهرة واضعين فى الاعتبار الحالة التى يكون عليها المولود الجديد دائما أو الفكر فى بداية ظهوره ونشأته .

ومن المهم أن نشير الى أن هذا الفكر ليس وليد هذه الفترة بالذات وانما هو فى حقيقة الأمر نتاج تلك الثقافية الواسعة النطاق التى رأيناها فى سنوات حكم محمد على ، وقد ولد هذا الفكر على يد « رفاعة الطهطاوى » أولا ، ثم « على مبارك» ثانيا، ومن هنا فسوف نورد فيما يلى وصفا للملامح الرئيسية لهذا الفكر الجديد عند كلا الرجلين .

أولا : رفاعة الطهطاوى : تتلخص الخطوط الرئيسية لفكر الطهطاوى فى التربية والتعليم فيما يلى من نقاط :

- عرف رفاعة التربية بأنها « تنمية أعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته الى بلوغه حد الكبر ، وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعاشية » .

وهكذا نظر رفاعة الى التربية نظرة شاملة فجعل موضوعها الطفل من ساعة أن يولد الى أن يتم نضجه ، وجعلها تشمل هذا الطفل من ناحيته الحسية والعقلية . وزاد على ذلك أنه جعل التربية عملية تؤدى الى تغير فى قدرات الفرد الى الأحسن والأصلح .

ولم ينس رفاعة عملية التوجيه فى التربية كفن وصناعة له أصول وقواعد يقصد بها الى احداث التغيير المرغوب فيه ، فالتربية عنده جهد مقصود يتم على حسب أصول فنية مقررة .

- أكد رفاعة ان للمرأة أن تنال تعليما مناسبا وأنه حق لها لا ينبغى أن تحرم منه(١) .

---

(١) أحمد أحمد بدوى : رفاعة الطهطاوى . ص ٣١١ .

وأبرز الطهطاوى أهمية تدريس التربية الوطنية والمجتمع على أساس ضرورة أن يعرف كل مواطن ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، والأصول والنظم التى تسير عليها بلاده حتى تهيئه بذلك أن يكون مواطنا قادرا على التعامل بنجاح مع السلطات المختلفة ومع غيره من أفراد المجتمع(١) .

- فى أخلاق المتعلمين ، يرى رفاعة أن الأثرة خصلة دنيئة يجب أن يتخلص منها الأطفال ، فهى منبع الحرص والطمع ، ويرى أن يعلم الطفل ، ذكرا كان أو أنثى من بواكير الطفولة العقائد الدينية الدالة على وجود الله ووحدانيته ، ولا ينصح رفاعة بتوبيخ الطفل اذاذ خالف أصول الأدب فى بعض الاوقات ، بل لا يكاشف بأنه أقدم عليه ، هذا فى أول أمره ، أما فى المرة الثانية فيوبخ الطفل سرا ، لأنه اذا تعود التوبيخ والمكاشفة أدى ذلك الى أن يكون وقحا ، ويهون عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح .

- فى صلة المعلم بالتلميذ ، يرى أن تبنى صلة المعلم بالتلميذ على الحب والاخلاص . ويتكلم رفاعة عن أن التلميذ يدعو لأستاذه كلما شرع فى قراءة درس وتكراره أو مطالعته ، واذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضا ، كما يدعو الأستاذ للتلميذ . ويصر على أن يحترم المعلم تلاميذه ويجريهم مجرى بنية ، وأن يكون شفوقا عطوفا عليهم صابرا على جفائهم وسوء أدبهم ، ويستنكر ضرب معلمى القرآن تلاميذهم الصغار ففى هذا خروج على حد الشرع . غير أنه يجيز للأب تأديب ابنه بالضرب ، وينصح المعلمين بترغيب الأطفال على التعلم ، ومسايرتهم باللطف والرفق وأن يأذنوا باللعب فى بعض الأوقات .

واذا كان هذا موقف المعلم من المتعلمين ، فان رفاعة يطلب من المتعلمين التأدب مع الله ومع المربين، والتواضع والاعتقاد فيهم، ويرى أن يطيع المتعلمون المعلمين ويسمعوا أقوالهم وينتصحوا بنصائحهم .

- العقلانية ، فالسمة البارزة فى هذا التفكير هى النزعة العقلية ... نفس السمة التى تميز مفكرى البورجوازية الثورية منذ عصر النهضة .. الطابع الديكارتى الواضح . واذاذ كان ديكارت يرى أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس ، ويبحث عن الوضوح والبداهة والفهم .. ويسعى دائما

---

(٢) لويس عوض تاريخ الفكر المصرى الحديث ، ص ١٦٠ .

الى التوفيق بين عقيدته وفكره المتفتح وايمانه الراسخ بالعقل ٠٠ فقد كان المفكر المصرى ، وهو فيلسوف التنوير والبعث يمر بنفس التجربة ، ويسعى الى نفس الهدف ، وينهج النهج ذاته ٠ أما عقيدة رفاعة فراسخة لا يذكر لها شيء ٠٠ الأزهرى المؤمن الصادق الذى تمتزج فيه العقيدة بالوطنية ٠ ولكنه يرى عقيدته تحت أضواء جديدة تماما ٠٠ ويفسرها بمنطق العقل وهديه ٠٠ ويحتفى بمنطق العقل وبالعلم احتفاء لا تحده حدود ٠

أما احتفاؤه بالعقل وبالفكر ، فنظريته التربوية كلها تقوم على أساس أن الانسان بطبعه يميزه النطق ، وأنه قادر بالعقل على تمييز الحق من الباطل ، الخير من الشر ، وان العقل حتى قبل أن تهبط الشرائع ، كان قادرا على هذا التمييز ٠ وفى العدد الثالث من روضة المدارس يكتب مقالا بعنوان : بقـــاء حسن الذكر باستخدام الفكر ، يدعو فيه الى اعمال الفكر لاستنباط الصالح من الأمور ٠٠ وفى « المرشد الأمين للبنات والبنين » نجد : « يطلب كون العقل مرآة العارف يميز به الحق من الباطل ٠٠٠ الله سبحانه وتعالى جعل العقـــل النورانى فى القلب الانسانى مرآة للعارف الفاضل يميز به الحق من الباطل ٠٠ فالعقل النير رسول قبل واسطة النبى المرسل والملك المغرب ٠٠ وان كانت العقول أفادت قبل الشرائع نوعا من التدبير فالعقل الراجح الصحيح النظر الخالى من الموانع ، قد يميز الحق من الباطل » ٠

ودعا الطهطاوى الى عدم الاقتصار على دراسة العلوم اللغوية والدينية فقط كما كان الأمر فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية ٠ وأوجب تعلم العلوم الحديثة لما لها من الأثر الذى لا ينكر فى بناء المجتمع الحديث ، ومن هنا نجده فى « مناهج الألباب » يحث أصحاب العلوم الشرعية على أن « يتشبثوا أيضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية » ٠

ويقول ان « هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية » ٠

ـ لم ينظر رفاعة الى التربية على أنها عملية فردية تقتصر على نمـــو التلميذ وتحقيق السعادة والنجاح له ، كما فعل أصحاب التربية القديمة والجهلة من غلاة التربية الحديثة(١)وانما نظر اليها على أنها عملية اجتماعية

---

(١) أبو الفتوح رضوان : رفاعة رافع الطهطاوى ، أول رائد للتربية والتعليم فى مصر الحديثة ، مجلة الرائد ، يناير ١٩٥٩ ٠

غايتها رفع مستوى الحياة فى الجماعة وتحسين طريقة حياة الأمة . بل سار خطوة بعد هذا المعنى فنص على أن التربية يجب أن تلتمس موجهاتها من أحوال الجماعة ، من نظمها وقوانينها ومشكلاتها ومقوماتها .

ثانيا : على مبارك : أما على مبارك فقد تحددت معالم فكره فى الخطوط الآتية :

- نادى على مبارك بأن التربية والتعليم لا يستهدفان تخريج طبقة قليلة ممتازة هى طبقة الحكام ، كما كان الأمر قائما قبل ذلك ، ولكن تنوير الشعب وبث الوعى القومى بين جميع أفراده ولذلك أوجب أن يكون التعليم عاما بحيث يعم الريف ، وهو حق للمصريين - جميع المصريين .

وفى مسامرة من تلك المسامرات التى يتحدث فيها شيخ من شيوخ الأزهر يقول لهذا الشيخ أن نهوضه لتعليم أبناء قومه من الفلاحين خير له ولدينه من الجلوس الى مكانه فى الأزهر يقضى فيه عمره ، وهو فى هذه المسامرة أيضا يدعو لتعليم الصبية علوم الطبيعة التى تنفع الناس فى حياتهم هذه الى جانب تلك التى تنفعهم فى آخرتهم ، وتقوم أمور دينهم ، وهو يدعو الآباء لأن يعدلوا فى تعليم أبنائهم عن ذلك النمط الذى عرفوه وألفوه ، الى ذلك التعليم النظامى الذى تولى هو انشاءه والتوسع فيه الى أبعد حد كان مستطاعا له ، وتولى نظارته وألف فيه الكتب ، وسار بمصر فى طريقه شوطا طويلا .

- أما مناهج التعليم وطرقه فقد آمن على مبارك بنظرية وظيفية المادة الدراسية ففى رأيه أن المدرس يجب ألا يعلم التلميذ شيئا الا مقترنا بفائدته فى الحياة العملية والكيفية التى يطبق بها فى الحياة . وعاب على المدارس فى أيامه اقتصار مناهجها على القرآن والكتابة والقراءة ، ولذلك أعطى عناية كبيرة للعلوم الطبيعية والتاريخ القومى . ومنهج التعليم الابتدائى الذى وضعه هو أول منهج فى مصر تقرأ فيه مواد مثل « أصول الحساب وتطبيقه على التجارة » ، و « مبادىء الهندسة وتطبيقها على المساحة » ، و « والحيوانات والنباتات الأهلية ومقدمة لفن الزراعة » .

- أما طريقة التدريس فقد لخص مذهبه فيها بقوله انها تقوم على « اجتلاء المعقول فى صورة المحسوس فيتعاضد الفكر والنظر والعلم والعمل »(١) لذلك

---

(١) أبو الفتوح رضوان : « على مبارك تلميذا ومربيا » مجلة الرائد ، مايو ١٩٥٨ .

اهتم على مبارك بالوسائل المعينة على التدريس ، وأوجب على المعلم أن يستعين بالوسائل ·

- ومن الدعوات والآراء التى كان فيها على مبارك مستقبليا واسع الأفق · دعوته لتعليم المرأة ·· ومما يقول على مبارك فى تبرير هذه الدعوة أن المرأة المتعلمة السافرة أصون لنفسها ، وأحفظ لكرامة زوجها وأهلها من الجاهلة المحجبة وهو لا يكتفى فى تعليم المرأة ، بذلك القدر اليسير الذى يدفع عنها وصمة الأمية فقط ، بل يدعوها لأن تبعد فى الثقافة والمعرفة حتى تستوى فيها بالرجل ·

- وكان ارساء اعداد المعلم على دعائم علمية أثرا من الآثار الهامة التى يقدرها تاريخ التعليم فى مصر لعلى مبارك · اذ لم يكن هناك قبل تعيين مبارك مديرا للمدارس وناظرا للمعارف - مدرسة يتخرج فيها المعلمون(١) ·

بل يذكر يعقوب أرتين فى كتابه (القول التام فى التعليم العام) أن الحكومة كانت اذا صادفت انسانا تلوح عليه معرفة بعض الأمور وكلت اليه أمر التعليم فى مدارسها ·

وكانت المواد كافية فى امداد الدولة بالمدرسين يوم أن لم يكن التعليم غرضا قوميا ، ويوم أن كان عدد المدرسين ضئيلا · أما أيام على مبارك ، فقد تغير الوضع ،تغير بالنسبة لوضع المدارس ، وتغير بالنسبة لذلك العدد الذى تحتاج اليه الدولة بعد أن أخذ فى نشر التعليم ، وفى الاكثار من عدد المدارس ·

شعر على مبارك بهذه المشكلة وصورها لنا بقوله : « وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم ، أمعنت النظر فى الأمر المهم » ·

وقد أقر على مبارك للمكاتب فقهاءها وعرفاءها ، وان يكن قد اشترط أن يحسنوا تجويد القرآن والخط ومعرفة القواعد الأولية من الحساب ، كما اشترط ألا يقبل شخص فى سلك المؤدبين والعرفاء الا اذا كانت بيده شهادة

---

(١) محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره . ص ٩١ ·

من أعيان بلده بصلاحيته للتعليم ، على أن يصدق على هذه الشهادة مندوب من ديوان المدارس • وليس لهذا من معنى الا أن (على مبارك) قد أخذ بعين الاعتبار العمل على تحسين نوع المدارس •

وظلت الطريقة التى كانت متبعة من قبل ـ أيام محمد على ـ قائمة هى الأخرى ، فكان على مبارك يأخذ المعلمين فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات « من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والادارة بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل على حسب استعداده » أما مدرسوا اللغة العربية ، فقد أنشأ لتخريجهم مدرسة خاصة بهم وهى : (دار العلوم) •

وليس من العجب أن يهتم على مبارك باحداث مدرسة دار العلوم قبل احداث غيرها من المدارس التى يتخرج فيها مدرسو المواد الأخرى كالحساب والهندسة وما أشبه ، فان على مبارك ظل يشكو من مدرسه فى النحو واللغة العربية طول عمره وظل يذكر أن طريقته فى التدريس كانت سيئة الى الحد الذى جعله لا يستفيد ولا يفيد ، ويرى على مبارك أن محاولاته السابقة فى سبيل الحصول على المعلمين قد مكنته من العمل على نشر التعليم والاكثار من عدد المدارس دون أن يرهق ميزانية الدولة فى عصر الأزمات المالية ، عصر اسماعيل •

ازدهار التعليم الأجنبى :

وكان طبيعيا أن يواكب ذلك الانفتاح بدون قيـــد ولا شرط بالنسبة لنشاط الأجانب فى البلاد ، ازدهار فى التعليم الأجنبى وخاصة فى عهد سعيد واسماعيل •

ومما يؤثر عن سعيد أن راهبات الراعى الصالح ـ وكن قائمات فى مدرستيها بمصر والاسكندرية بتربية ستين بنت يتيمة من بنات البلاد على اختلاف أديانهم ، زيادة عن البنات الأخر الدافعـــات قيمة أجـــر تعليمهن وتربيتهن ـ وجدن العبء ثقيلا عليهن ، فالتجأن اليه ورفعن الى سعيد عرضا طالبن فيه منحهن أردب بر سنويا ـ عن كل واحدة من تلك اليتيمات ، فأجاب طلبهن فى الحال •ويرىكذلك أن راهبات المحبة بالاسكندرية ، كن قد فتحن صيدلية لتوزيع الأدوية مجانا على المرضى ووجدن أنهن فى احتياج الى مبلغ

خمسة آلاف فرنك ليتمكن من الاستمرار فى عملهن ، فسارع سعيد باعطائهن ما طلبن وأعطى كذلك لمدرسة ايطالية حكومية مبلغ ألفين وأربعمائة جنيه ووهبها ٨ آلاف ذراع فى نقطة من أحسن جهات الاسكندرية ٠

ومنح اسماعيل « راهبات الاحسان » ٣٥٠٠ ذراع لبناء مدرسة عليها بالاسكندرية ومقادير من القمح قدرها ٦٥ أردبا سنويا لمدرسة « الراهبات اليسوعية » وأمر كذلك بربط ٧٠٠ قرش بالأوقاف لوظيفة معلم اللغة العربية بمدرسة الأوربيين ببور سعيد ، وأمر بشراء كتب أجرومية قدرى بك للمدارس اليونانية ببور سعيد ، وأمر بصرف ١٥٠ر١٠ قرشا سنويا لمدرسة « العازاريين » ، وكذلك ٢٥٠ر٩ قرشا و ١٥٠٠ أردب سنويا من القمح للفرير بالاسكندرية ٠ كذلك منح الارسالية الامريكية أرضا بالقرب من فندق شبرد ليقيموا عليها مركزا لحركتهم بدل مكانهم بالموسكى ، وأضاف الى ذلك هبة مالية قدرها سبعة آلاف جنيه ليبدءوا بها البناء ، وكان يطلب الى الهيئات المحلية الادارية أن تمد يد المساعدة فيها للقائمين على المدرسة الأجنبية لأن هذه المدرسة « من الأمور التى يجب المساعدة فيها »(١) ٠

واذا اخترنا الأساليب الأمريكية كمثال للنشاط الأجنبى فى المجال التربوى ، فسنجد أن وصول المرسلين الأمريكيين ، قد بدأ فى سنة ١٨٥٤ أثناء حكم سعيد باشا ، وأثناء احتدام المنازعات الطائفية فى الشام ٠ يقول اندرو واطسن : « تولى سعيد باشا الحكم سنة ١٧٥٤ وهى نفس السنة التى دخل فيها مكاج وبارنت مصر وبدأ عمل الأرسالية ٠ كان أميرا طيبا مستنيرا٠ ولم يأت وقت منذ ١٢٠٠ عام أكثر مناسبة لبدء العمل التبشيرى فى البلاد ٠٠ »(٢) ووصف الكاتب هذا الوالى بأنه « القديس الحامى للارسالية الأمريكية » ويقول : « أن الأجانب مدينون بالكثير لحكم سعيد باشا ٠٠ ولقد وضعت الارساليات فى أثناء عهده أسس عملها تلك الأسس التى لم يكن من المستطاع بعد ذلك هدمها بواسطة أشد المقاومات عنفا من جانب الحكام المدنيين والدينيين مجتمعين » ٠ ويقرر واضع تاريخ الارسالية خلال مائة عام ـ أيرل الدر ـ أنه منذ البداية ، كانت الارسالية مدينة بالكثير لرجال الأعمال وأصحاب المهن الأجانب بسبب ما كانوا يزودونها به من مشورات

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ص ٢٧ ـ ٣٨ ٠

(٢) وليم سليمان : تيارات الفكر المسيحى ، ص ٨٧ ٠

ونصائح · وفى نفس الوقت تأكد هؤلاء من قيمة برنامج الارسالية · وقد اقترح واحد منهم أن تتقدم الارسالية بطلب للخديو ليمنحها منزلا أو قطعة أرض تشيد عليها مكانا دائما لها · وبالفعل أهدى لهم سعيد باشا فى سنة ١٨٦٢ بناء على تدخل من القنصل الأمريكى مبنى كبيرا فى أول شارع الموسكى الذى كان وقتئذ الشارع الرئيسى بالقاهرة ثم باعته الارسالية للخديو اسماعيل مقابل سبعة آلاف جنيه ذهبى ·

أما تفاصيل مجىء المبشرين الأمريكين الأوائل الى مصر ، فغامضة أشد الغموض · والمرجع الرئيسى هنا هو كتاب أندروواطسن ·

لقد حضر المرسلون الأوائل من دمشق بسوريا الى مصر سنة ١٨٥٤ · ويسوق الكاتب المذكور عدة أسباب لذلك ، من بينها الاضطرابات السياسية التى كثرت فى الشام الأمر الذى يجعل من مصر نوعا من الملجأ أثناء هذه الأزمات المتلاحقة · ومن المعروف أن الأحوال السياسية فى سوريا كانت مضطربة أشد الاضطراب خلال الأعوام التالية لسنة ١٨٤٠ ، وانتهى الأمر بقيام فتنة سنة ١٨٦٠ ذات الطابع الدينى بين النصارى والمسلمين والتى أدت الى تمكين السيادة الغربية فى هذه البلاد · ونجد فى كتابات المرسلين اعترافا بالنتائج التى ترتبت لصالحهم نتيجة هذه الفتنة · ويقرر يوجين ستوك مؤرخ الارسالية الانجليزية ، أن وزارة الخارجية الانجليزية كلفت هذه الارسالية سنة ١٨٥٠ بناء على طلب القنصل العام الانجليزى فى سوريا بفتح ارسالية للكنيسة الانجليزية فى لبنان(١) ·

أما بالنسبة لنشاط الارساليات والجاليات الأجنبية الأخرى فيمكن ايراد هذه الصورة الموجزة ·

(أ) بالنسبة للتعليم الفرنسى ، نجد :

* تأسست فى عام ١٨٦٦ ارسالية « راهبات سيدة الرسول » Notre Dam des Apotres

وقد وفدت الى مصر عام ١٨٨١ وأسست مدرسة بطنطا فى نفس العام وتزايد نشاطها بعد ذلك ·

---

(١) المرجع السابق ·

* أما ارساليات « راهبات الميردى ديو » La Mére de Dieu فقد وفدت الى مصر عام ١٨٨٠ فى عهد الخديو توفيق وأسست مدرسة ببولاق بالقاهرة ، وقامت الراهبات بتأسيس مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ١٨٨٢ .

* أما مدارس (الفرير) فقد أنشأت كلية Saint Joseph بالقاهرة سنة ١٨٥٤ ، وفى نفس العام ، المدرسة المجانية الملحقة بالقاهرة أيضا . ومثلهما فى باكوس بالاسكندرية فى عامى ١٨٧٣ ، ١٨٨٦ .

* وبدأت هيئة « الجزويت » Compagnie de Jésus نشاطها التعليمى عام ١٨٧٩ .

(ب) بالنسبة للتعليم الانجليزى ، نجد :

- بدأت الارسالية الاسكتلندية فى انشاء مدرسة للبنات فى حى المنشية عام ١٨٥٦ ، ثم تبعتها مدرسة للبنين سنة ١٨٥٧ فى بناء مستأجر ، وفى عام ١٨٦٧ أنشأت الارسالية الكنيسة الاسكتلندية فى ميدان اسماعيل وانتقل التلاميذ الى الطابق الأرضى بها .

(جـ) بالنسبة للمدارس اليونانية :

* افتتحت بالاسكندرية عام ١٨٥٥ مدرسة للبنات لم يكن بها سوى ناظرة ومدرسة .

* فى عام ١٨٦٠ أنشئت مدرسة « أبت » بالقاهرة التى اشتملت على قسم يونانى وقسم مصرى(١) .

(د) بالنسبة للمدارس الأرمنية :

* فى عام ١٨٥٤ بنيت مدرسة بجوار كنيسة السيدة العذراء بدرب الجنينة وسميت (خورنيان) Khorniean school ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم « مدرسة كالوسديان » Kalousdian .

ونشأت كذلك مدارس المانية وأخرى ايطالية .

وقد تخطى التعليم الأجنبى الحدود التى كان ينبغى أن يعمل فى داخلها بأن نشط فى تحويل بعض أبناء الاقباط المصريين الى المذهبين الكاثوليكى

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى ، ص ٨٢ .

والبروتسانتى ، وكان للنشاط الكبير الذى قامت به الارسالية البروتستانتية أثر كبير على أقباط مصر مما دفع بطريرك الأقباط فى ذلك الوقت الى القيام برحلة الى أسيوط فى عام ١٨٦٧ بغرض الحد من نشـــاط المركز الجـــديد للارسالية الامريكية هناك ، وبعد وصول البطريرك الى الكنيسة القبطية جمع المسئولين الأقباط وبدأت مقاومته لمدارس الأرسالية • ومن ذلك أنه أمـــر بتجريد أحد القسس بمديرية أسيوط من منصبه الكنسى لسماحه لأخيه وهو أحد خريجى مدرسة اللاهوت بالارسالية الأمريكية بالقيام بالخدمة فى الكنيسة القبطية عقب انشاء القداس القبطى الأرثوذكسى ••• ومر البطريرك بأبى تيج وأخميم حيث أقفلت المدرسة البروتستانتية هناك عقب زيارته •

وكان من نتائج رحلة البطريرك تناقص عدد التلاميذ الملتحقين بمدارس الارسالية ، الا أن رغبة الناس فى اعفاء أبنائهم من أن يؤخذوا بالجيش جعلتهم يرسلون أبناءهم الى هذه المدارس ، وذلك لأن الدولة كانت تعفى كل من يلتحق بهذه المدارس من الالتحاق بالجيش أو الاشتغال باقامة السكك الحديدية والطرق العامة •

وليس من شك فى أن اطراد الزيادة فى عدد هذه المدارس وتلاميذها مع بقائها مستقلة تمام الاستقلال عن ديوان المدارس أو نظارة المعارف بحكم « الامتيازات الأجنبية » ، قد هال القائمين على شئون التعليم فى البلاد ، فتقدم ممصطفى رياض عام ١٨٧٢ بمشروع قانون لتنظيم المدارس الأجنبية أو المدارس الحرة على وجه العموم واخضاعها لهيمنة الدولة ، حيث رأى أن كل مدرسة حرة أو خاصة ينشئها أفراد من أهل البلاد أو من الأجانب يجب أن تنال رخصة من الحكومة المصرية ، وتخضع لتفتيش نظارة المعارف مع بقائها مستقلة وتشترك نظارة المعارف فى امتحان تلاميذ هذه المدارس • وبطبيعة الحال لم يكن لأحد فى الحكومة المصرية فى ذلك الوقت أن يجرؤ على تنفيذ هذا الكلام على المدارس الأجنبية •